حين هبط الظلام وغنّت العصافير

رمضان مصطفى سليمان

في مساءٍ من أمسيات أواخر الخريف ، عند أطراف قرية صغيرة تستلقي بين التلال كطفلةٍ أنهكها اللعب ، بدأت الشمس رحلتها الأخيرة نحو الأفق.

كان المكان هادئًا على نحوٍ يثير التفكير ، البيوت الطينية المتناثرة بدت تحت الضوء البرتقالي كأنها تحفظ أسرار أهلها خلف نوافذ صغيرة ، والدخان المتصاعد من المداخن يصعد ببطء نحو السماء ، ثم يذوب فيها كذكرى قديمة

وعلى الطريق الترابي الطويل ، عاد الرجال من الحقول مثقلين بتعب النهار ، بينما أغلقت النساء الأبواب واستدعين أبناءهن من الأزقة قبل أن يشتد الظلام.

شيئًا فشيئًا، غابت الشمس. لم يكن غروبها مفاجئًا، بل بدا كأنه وداع طويل. امتدت ظلال الأشجار ، وانسحب الضوء عن الحقول ، وتحوّل لون السماء من ذهبٍ شاحب إلى بنفسجي حزين ، ثم إلى زرقة عميقة لا نهاية لها.

وهبط الظلام.

في بيتٍ صغير عند آخر القرية ، جلست **سلمى** قرب النافذة.

كانت فتاة في الثانية والعشرين من عمرها ، نحيلة القوام ، هادئة الملامح ، واسعة العينين على نحوٍ يوحي بأنها ترى أكثر مما ينبغي. كان شعرها الأسود ينسدل خلف كتفيها ، وقد اعتادت أن تجمعه كل مساء حين تبدأ في إعداد العشاء ، لكنها في ذلك اليوم تركته منسدلًا ، كأنها لم تجد في نفسها رغبةً في ترتيب شيء.

منذ أسابيع، لم تعد سلمى تشبه نفسها.

كانت أمها تقول إن الحزن لا يليق بوجه فتاة شابة ، وإن الحياة لا تتوقف عند خسارة واحدة.

لكن سلمى كانت تعرف أن بعض الخسارات لا تمرّ في القلب مرور العابرين ؛ بعضها يدخل ويغيّر ترتيب الأشياء كلها.

قبل عام، مات والدها ، كان رحيله هادئًا أيضًا ، نام ذات ليلة، ولم يستيقظ.

ومنذ ذلك اليوم ، بدا البيت أكبر من أهله ، وأكثر برودة. ظل كرسيه الخشبي قرب الباب في مكانه ، وظلت أدواته معلقة على الجدار ، وظلت أمه تضع طبقًا زائدًا على المائدة في الأيام الأولى ، ثم تتذكر فجأة أن لا أحد سيجلس عليه.

أما سلمى ، فقد اختارت النافذة ، كانت تجلس كل مساء وتراقب الطريق.

في البداية ، كانت تنتظر عودة أبيها ، رغم أنها تعرف أنه لن يعود ، ثم تحولت العادة إلى طقس غامض ؛ تجلس ، وتصمت ، وتراقب الغروب ، كأنها تنتظر من الأفق جوابًا عن سؤال لم تعرف كيف تصوغه.

في ذلك المساء ، حين ابتلع الليل آخر خيطٍ من الضوء ، شعرت سلمى بالخوف.

قالت في سرها : لماذا يخيفني الليل ؟

ثم أجابت نفسها بصمتٍ أكثر عمقًا : لأنني عندما يحل الظلام ، لا يعود هناك شيء يشغلني عن نفسي.

أطرقت رأسها.

كانت تعرف أن النهار رحيم بطريقته الخاصة. في النهار توجد أعمال كثيرة : الماء ، الطعام ، السوق ، تنظيف البيت ، كلام الناس ، أصوات الأطفال ، وصياح الباعة. أما الليل ، فلا يمنح الإنسان فرصة للهروب.

في الليل، يعود كل شيء ، تعود الكلمات التي لم تُقَل ، وتعود الوجوه التي رحلت ،

وتعود الأسئلة التي دفناها تحت ضجيج الأيام.

أغمضت سلمى عينيها.

أين يذهب الذين نحبهم ؟

كان السؤال قديمًا ، لكنها لم تجد له جوابًا.

قالت لنفسها :

يقولون إن الموت حق ، وإن علينا أن نقبل ما كُتب لنا.

ولكن لماذا لا يخبرنا أحد كيف نتعلم الغياب ؟ كيف يستطيع القلب أن يتصرف وكأن شيئًا لم يحدث ، بينما هو يعرف أن العالم كله تغيّر ؟

فتحت عينيها فجأة.

ومن الخارج ، جاء صوت خفيف. ، رفرفة. ، ثم رفرفة أخرى.

نظرت إلى الحديقة الصغيرة أمام البيت ، كانت هناك شجرة توت عجوز ، تمتد أغصانها فوق السور الطيني ، وفي أعلاها ، حيث لم يكن الضوء قد اختفى تمامًا ، وقفت عصفورة صغيرة.

تعجبت سلمى. ، لم تكن تتوقع أن ترى طائرًا في ذلك الوقت من الليل.

ثم سمعت الصوت. ، زقزقة قصيرة.

توقفت. ، ثم تكررت.

واحدة تلو الأخرى ، بدأت أصوات صغيرة تتجمع في الظلام. خرجت عصافير لا يبدو أنها تعرف النوم ، أو ربما كانت تعرفه ، لكنها اختارت في تلك الليلة أن تؤجل نومها قليلًا.

وقفت فوق الأغصان العالية ، ورفرفت بأجنحتها الرقيقة ، ثم بدأت تغني.

ابتسمت سلمى دون أن تشعر. ، كان في الأمر شيء غريب.

العالم من حولها يستعد للصمت، وهذه المخلوقات الصغيرة تختار الغناء.

اقتربت من النافذة وفتحتها.

دخلت نسمات هواء باردة ، تحمل رائحة التراب والحقول البعيدة ، رفعت وجهها نحو السماء ، كانت النجوم قد بدأت تظهر واحدة بعد أخرى ، مثل ثقوب صغيرة في ستار الليل.

وقالت في نفسها : كيف تستطيع هذه العصافير أن تغني ؟ ألا تخاف الظلام ؟

لكن السؤال تحول في داخلها إلى شيء آخر : ولماذا يجب أن يكون الظلام مخيفًا؟

صمتت.

كانت قد اعتادت أن ترى الليل نهايةً للأشياء ، نهاية النهار ، نهاية الحركة ، نهاية الكلام. لكنها في تلك اللحظة أدركت أن الليل لم يكن نهاية بالنسبة إلى الجميع.

هناك من يبدأ في الظلام. ، هناك من يجد صوته حين يصمت الآخرون.

هناك من لا يرى في العتمة إلا فرصةً للإنصات.

ازدادت العصافير غناءً. ، لم تكن أصواتها عالية ، لكنها كانت واضحة ؛ كأنها ألحان خفية لا تريد أن توقظ العالم ، بل أن تهمس له فقط : **لا تخف ، ما زلنا هنا.**

في الداخل ، سمعت سلمى صوت أمها.

سلمى ، هل ستبقين عند النافذة طويلًا ؟

التفتت إليها.

كانت أمها ، **بهيجة** ، تقف عند باب الغرفة ، امرأة نصف تجاوزت الخمسين ، حفرت السنوات خطوطها حول عينيها ، لكنها بقيت تحمل في وجهها ملامح قوة صامتة. منذ وفاة زوجها ، صار شعرها أكثر بياضًا ، وصار صوتها أقل امتلاءً بالحياة ، لكنها لم تسمح لنفسها بالانهيار.

كانت تنهض كل صباح. ، تعد الطعام. ، تنظف البيت. ، وتواصل الحياة.

وهذا ما كان يزعج سلمى أحيانًا.

قالت لها ذات مرة : كيف تستطيعين أن تعيشي وكأن أبي لم يرحل ؟

عندها لم تغضب بهيجة .

جلست إلى جوارها وقالت : وهل تظنين أنني أعيش وكأنه لم يرحل ؟

لم تجد سلمى جوابًا.

قالت الأم : يا ابنتي ، الناس لا يواصلون الحياة لأنهم نسوا ، بل يواصلونها لأن الموتى لا يستطيعون أن يعيشوا بدلًا منا.

ظلت تلك الجملة في ذهن سلمى ، لكنها لم تفهمها حقًا إلا في تلك الليلة.

اقتربت بهيجة من النافذة وسمعت غناء العصافير.

ابتسمت.

غريبة هذه الطيور، قالت.

سألتها سلمى : ألا ينبغي أن تكون نائمة ؟

ربما.

إذن لماذا تغني ؟

نظرت الأم إلى السماء ، ثم قالت : ربما لأنها لا تريد أن تسلّم لليل كل شيء.

سكتت سلمى.

كانت العبارة بسيطة ، لكنها وقعت في نفسها كأنها باب يُفتح.

لا تريد أن تسلّم لليل كل شيء.

نظرت إلى العصافير من جديد.

فكرت في نفسها ، وفي العام الذي مضى ، كيف سلّمت للحزن وقتها كله ، كيف جعلت ذكرى أبيها سببًا لتبتعد عن صديقاتها ، وعن الكتب التي تحبها ، وعن حلمها القديم بأن تصبح معلمة.

كانت قد أوقفت دراستها ، قالت إن الظروف صعبة ، وكان ذلك صحيحًا.

لكن الحقيقة الأخرى ، التي لم تعترف بها ، أنها فقدت الرغبة في أي شيء.

وما الفائدة ؟ كانت تسأل نفسها.

إذا كانت الأشياء الجميلة يمكن أن تختفي فجأة، فلماذا نتعلق بها ؟

لكن العصافير الصغيرة لم تعرف هذه الفلسفة الثقيلة.

لم تسأل نفسها كم سيطول الليل. ، ولم تفكر إن كان الصباح مضمونًا.

كانت تغني فقط.

وفجأة، شعرت سلمى بالخجل من نفسها.

ليس لأنها حزينة ؛ فالحزن حقّ من حقوق القلب ، بل لأنها سمحت للحزن أن يقنعها بأن الحياة خيانة لمن رحلوا.

قالت في داخلها : ربما لم يكن أبي يريدني أن أبقى عند هذه النافذة طوال عمري.

ثم جاءها صوت آخر ، أعمق : وربما لم يكن الموت قد أخذ أبي مني وحدي ، ربما أخذه من أمي أيضًا ، لكنها فهمت قبلّي أن الحزن لا يصبح وفاءً حين نعيش داخله إلى الأبد.

اغرورقت عيناها بالدموع.

سألتها أمها برفق : ماذا بك ؟

أجابت سلمى وهي تنظر إلى الخارج : كنت أفكر في أبي.

اقتربت بهيجة منها.

وأنا أيضًا.

قالت سلمى : أشتاق إليه كثيرًا.

وضعت الأم يدها على كتفها.

وأنا كذلك.

كان اعترافًا صغيرًا ، لكنه حرّر شيئًا بينهما ، للمرة الأولى منذ وفاة الأب ، لم تحاول أي منهما أن تبدو أقوى من الأخرى.

بكت سلمى ، وبكت أمها أيضًا.

لم يكن البكاء صاخبًا ، بل هادئًا ، كالمطر حين يبدأ خفيفًا فوق أرض عطشى.

وبينما كانتا تبكيان ، استمرت العصافير في الغناء.

شعرت سلمى أن الحزن والغناء لا يتناقضان.

وأن الإنسان يستطيع أن يبكي ويحب الحياة في الوقت نفسه.

وأن الوفاء لمن رحلوا لا يعني أن نتوقف عن السير.

في تلك اللحظة ، ظهر القمر من خلف الغيوم ، كان مكتملًا تقريبًا ، أبيض هادئًا ، يسكب ضوءه على أسطح البيوت والطرقات والأشجار، بدا كأنه يسمع ذلك الغناء الصغير ، فيبتسم للعالم دون أن يراه أحد.

قالت سلمى : انظري يا أمي... حتى الليل ليس مظلمًا تمامًا.

رفعت بهيجة عينيها. ثم ابتسمت.

نعم. نحن فقط نحتاج أحيانًا إلى وقت كي تعتاد عيوننا الظلام.

تأملت سلمى الجملة.

نحتاج إلى وقت كي تعتاد عيوننا الظلام.

ربما كان هذا هو الحل ، ليس أن نهزم الحزن ، ولا أن ننسى ، ولا أن نطالب الليل بأن يرحل فورًا.

بل أن نتعلم كيف نرى فيه ؟ كيف نكتشف النجوم التي لم نكن نراها في النهار ؟

كيف نصغي إلى الألحان التي لا تظهر إلا حين يسكن العالم. ؟

في تلك الليلة، جلست سلمى وأمها قرب النافذة طويلًا.

لم تتحدثا كثيرًا.

كان الصمت بينهما هذه المرة مختلفًا ، لم يكن صمت الفقد ، بل صمت المشاركة.

وفي الخارج ، هدأت القرية ، أطفئت المصابيح واحدًا بعد آخر ؛ نام الأطفال في أحضان أمهاتهم ، واستراح الرجال من تعب الحقول ، وسكتت الطرقات التي كانت تمتلئ في النهار بالأقدام والأصوات.

لكن فوق شجرة التوت ، بقيت بعض العصافير ساهرة.

كانت تغني ، ليس خوفًا من الظلام.

بل فرحًا بذلك السكون الذي يكشف للأرواح ما تخفيه الضوضاء.

وقبل أن تنام ، عادت سلمى إلى غرفتها.

وقفت لحظة أمام صورة أبيها.

كان يبتسم فيها ابتسامته الهادئة التي طالما جعلتها تشعر بالأمان.

مدت يدها ولمست إطار الصورة.

ثم قالت بصوت منخفض : سأشتاق إليك دائمًا يا أبي.

توقفت قليلًا.

ثم أضافت : لكنني سأعيش.

لم تسمع جوابًا.

ومع ذلك ، شعرت كأن شيئًا دافئًا مرّ في قلبها.

ربما كان وهمًا.

وربما كانت ذكرى.

وربما كانت الحياة نفسها ، وهي تضع يدها على كتف إنسان متعب وتقول له :**انهض... ليس لأنك نسيت ، بل لأن أمامك طريقًا ما زال ينتظرك.**

في الصباح، استيقظت القرية على ضوء جديد.

دخلت الشمس من النافذة ، فامتلأت الغرفة بذهبٍ هادئ ، نهضت سلمى ببطء ، وفتحت النافذة.

كانت شجرة التوت ساكنة ، لم تكن العصافير هناك ، ربما طارت إلى مكان آخر.

ابتسمت ، لم تشعر بالحزن ، عرفت أنها ستعود ، وحتى إن لم تعد ، فإن غناءها بقي في داخلها.

دخلت أمها تحمل إبريق الشاي ، وقالت : صباح الخير.

التفتت سلمى إليها ، وكانت ابتسامتها هذه المرة واضحة وحقيقية.

صباح الخير يا أمي.

ثم نظرت إلى الطريق الممتد أمام البيت ، كان طويلًا ، وكان مجهولًا ، وكان يحمل بالتأكيد أيامًا صعبة ، وليالي أخرى سيهبط فيها الظلام.

لكن سلمى لم تعد تخاف الفكرة نفسها.

فقد تعلمت أن الليل ، مهما امتد ، لا يبتلع كل شيء ،

دائمًا هناك نجمة ، ودائمًا هناك نافذة يمكن فتحها ، ودائمًا ، في مكان ما ، قد تقف عصفورة صغيرة فوق غصنٍ عالٍ ، وترفرف بجناحيها الرقيقين ، ثم تغني رغم العتمة.

وهكذا، لم يعد هبوط الظلام عند سلمى إعلانًا عن نهاية النهار.

صار بدايةً لفهم جديد.

فهمت أن الإنسان لا يُقاس بعدد المرات التي نجا فيها من الحزن ، بل بقدرته على ألا يسمح للحزن بأن يسلبه حقه في الحياة.

وفهمت أن السلام ليس غياب الألم ، بل القدرة على حمله دون أن نسقط.

أما العصافير ، فقد ظلت في ذاكرتها رمزًا بسيطًا وعميقًا :

أن بعض الأصوات لا تظهر إلا في الصمت ، وأن بعض الأنوار لا نراها إلا بعد أن يحل الظلام ، وأن القلب ، مهما أثقله الفقد ، يستطيع في يومٍ ما أن يفتح نافذته من جديد.

وحين أشرقت الشمس كاملة فوق القرية ، أغمضت سلمى عينيها لحظة ، ورفعت وجهها إلى دفئها.

ثم همست لنفسها : **لقد هبط الظلام... لكنني لم أهبط معه.**